



في تقرير صدر مؤخراً لـ «أمنستي إنترناشونال» (منظمة العفو الدولية) حول ترحيل روسيا سوريين، ورفض طلبهم اللجوء، نسبت المنظمة إلى دائرة الهجرة الروسية القول: «لا يوجد قتال في مدينة حلب، فقط الأكراد والأرمن والشركس وحدهم من في حاجة إلى الحماية».

ليس قلب الواقع رأساً على عقب هو وحده ما يميز هذا التصريح (حلب كانت بؤرة القتال وقت صدور تقرير أمنستي، وعرب مسلمون سنيون هم، أولاً وأساساً، المستهدفوون نسقياً، ومن يحتاجون إلى حماية في حلب، وفي سوريا ككل)، بل ما يبطنه من وعي حاد بتمييزات السوريين الإثنية والمذهبية، ومن انحيازه ظاهرياً ضد بعضهم ضد بعض. مسلك روسيا خلال أكثر من خمسة أشهر من حربها في سوريا يعطي ما يكفي من انطباع بأنها في واقع الأمر تحارب السنّيين السوريين.

وبسباق لوزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف أن صرخ لإذاعة «كوميرسانت اف أم» الروسية في آذار (مارس) 2012 بأن: «الصراع يدور في المنطقة كلها، وإذا سقط النظام الحالي في سوريا، فستتبثق رغبة قوية وتمارس ضغوط هائلة من جانب بعض بلدان المنطقة من أجل إقامة نظام سني في سوريا، ولا يراودني أي شك بهذا الصدد. ويقللنا في هذا الوضع مصير المسيحيين، وهناك أقلية أخرى كالأكراد والعلويين وكذلك الدروز».

الوزير الروسي يقرن ما يسميه «نظاماً سنياً في سوريا» والقلق على «مصير المسيحيين»، قبل أن يذكر بـ «أقلية أخرى». لا يقول أن بلده لا يريد نظاماً طائفياً في سوريا، أو أنه يعمل من أجل المساواة بين السوريين بصرف النظر عن منابعهم الدينية والإثنية. ما ي قوله موجه ضد السنّيين السوريين، ويتوافق بدوره مع سياسة روسيا في سوريا منذ بداية الثورة قبل خمس سنوات إلى اليوم.

ما يصدم في التصريحات الروسية ليس طابعها التقسيمي المميز للخطابات الكولونيالية في كل وقت، ولكن فجورها في الجهر بكراهية أكثريّة السوريين الدينية، وعطفها المزعوم على أقلّيات البلد. ما الأصل في هذا المسلك العدوانى الممسور؟

يمكن التفكير بعدد من العناصر:

أولها علاقة حساسة ومتورّة بين المسلمين في روسيا، ومعظمهم سنيون، والسلطة الروسية التي تشك في ولائهم لها. ولا يغيب عن ذاكرة نخبة الحكم الروسية، أنه كان للجهاديين السنّيين الدور المباشر الأكبر في إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفياتي في أفغانستان، وبصورة ما في تفكك الامبراطورية التي كان فلاديمير بوتين عنصراً في مخابراتها قبل ربع قرن. وفي أوقات سابقة، كانت اللينينية الروسية توجّهاً تحدّثياً نحو أوروبا، ينظر إلى آسيا، وضمناً المسلمين، كشيء مختلف وإنقطاعي، وفق مألف الأيديولوجيا التحدّثية في كل مكان، بما في ذلك في بلداننا نفسها.

في المقام الثاني من المرجح أن غير قليل من المعلومات عن «النظام السنّي»، وعن حصر الحاجة بـ «الحماية» في «الأقلّيات»، وكذلك المنظور السياسي المتكون حول هذه «المعلومات»، مصدره سلطة الانتداب الأُسدي التي تعمل موسكو على تمديد ولاليتها في سوريا. مسؤولو الدولة الباطنة في سوريا الأسد، أعني المركب السياسي الأمني المالي المسيطر، شديدو الوعي بهذه الواقع، وتحالفاتهم العسكرية في مواجهة الثورة منذ البداية تظهر مركبة هذا الوعي. ومن المحتمل جداً أنهم يشاركون نظام بوتين في معلوماتهم، مع علمهم بأن ذلك النظام ليس أقلّ منهم سعراً في مواجهة أي مسلم يحاول لعب دور سياسي مستقل.

وهناك في المقام الثالث تشكّل النّظام الدولي الحالي حول «الحرب ضد الإرهاب»، وهو ما يضع المسلمين عملياً في موقع المشبوهين العالميين، المحتاجين إلى تبرئة أنفسهم، الأمر الذي إن لم يشجع معاملتهم بقسوة، فإنه يثير أقل المقاومات في وجه معاملة كهذه.

هذا البعد الديني - السياسي - الأمني للنّظام الدولي لا يمكن إغفاله أو التقليل من شأن ما يترتب عليه من عواقب تزداد خطورة. المسلمين اليوم، والسنّيون منهم بصورة خاصة، هم الشريحة الثقافية المعرضة للتمييز، ولعدم الاعتراض على ما ينالها من تمييز في فضاءات دولية كثيرة - كل الغرب وروسيا والصين وبلدان عديدة في العالم، بما فيها «الدول الإسلامية». هناك أشياء غير مرئية لعموم المهتمين، وليس لعموم الناس فقط، منها القوائم التي تعمّمها الشرطة الأوروبيّة والانتربول الدولي، وهذه القوائم مكونة بصورة شبه حصرية من مسلمين، وكثيرون منهم يحجزون في المطارات أو يقضون أوقاتاً متطاولة في «نظارات» ترحيل، وهذا حتى في بلدان مثل تركيا. وعلى هذا المستوى هناك تنسيق مؤكّد بين الأجهزة الأُسديّة في سوريا والانتربول مثلاً، ولا ريب أن التنسيق أعلى بكثير مع المخابرات الروسية.

السجين السياسي العالمي اليوم مسلم بصور أساسية، وسني. وليس لكلمة إرهابي أن تنفي هذا الوضع، بل هي مصممة لحجبه وتبريره في آن. هؤلاء سجناء سياسيون حتى حين يكون صحيحاً أنهم مرتبطون بـ «القاعدة». هذا الوضع الشاذ وغير العادل ليس بسبب «داعش» و«القاعدة»، هذا هو ما ينتج «داعش» و«القاعدة». وبالمناسبة، هذه السجون فرصة لـ «تَعَدُّ» أو «تَدُعُّش» بعض من ليسوا كذلك أصلاً.

وما يميز روسيا من فظاظة ضمن هذا الإطار يتصل بحقيقة أن البلد، وبلدان أوروبا الشرقية كلها في ما يبدو، لم تعرف نقاشاً حول العنصرية وحول الاستعمار، استعمارها الخاص. ليس التعالي الكولونيالي خافت الصوت في الغرب، ولا العنصرية المتعددة الشكل، مع غلبة الشكل الثقافي الديني المعادي للمسلمين اليوم، لكن في الغرب أيضاً ظهرت مقاومات

ضد العنصرية واعتراضات ضد الكولونيالية لم تشهد أوروبا الشرقية، ولم تشهد مجتمعاتنا العربية وثقافتنا ما يناظرها.

ويبدو أن هذه المقاومات في أدنى مستوياتها اليوم في الغرب ذاته، بفعل تشكل نظام دولي يجمع استقطابات الثروة والقوة و«الحضارة»، ومن دون أن تتشكل في وجهه حركات تحررية جديدة، ومع تدني الكمون الديموقراطي في العالم ككل.

موقع المسلمين المتمرد و«الإرهابي» في هذا النظام ليس عريضاً، ولا هو متصل حسراً بمشكلات تخص دين المسلمين؛ إنه وثيق الصلة بتكوين النظام «الحضاري». العنصرية تنبع من بنية النظام وليس عارضاً أصابه من خارجه.

روسيا هي «وجه المقاومة» في هذا العالم، بلد جمع بين الامبراطورية والامبرالية الداخلية (الشمولية) و«الرسالة الخالدة» بشكلها الأرثوذكسي والشيوعي، ولم ينظر في ماضيه يوماً بجد. هذا البلد هو اليوم قوة استعمار عنصرية في سوريا، يُمنح انتداباً دولياً على سوريا بعدها لم يعد الانتداب الأسدية قادراً على تأييد نفسه.

الحياة اللندنية

المصادر: